



دور النص القرآني في بث الوعي التفسيري (محور الخطاب القرآني)

المدرس المساعد
زينب علي مهدي

الأستاذ الدكتور
محمد صبار نجم
جامعة الكوفة - كلية الفقه

قراءة أخرى لمفسر آخر وهكذا . كما أنّ للفروق الفردية بين المتلقين ، واختلاف الثقافات دوراً مهماً في إنتاج رؤية تفسيرية ليؤدي بدوره صراع مفاهيم بين المفسرين ليتوافقون تارة ويختلفون تارة أخرى في تفسير الخطاب .

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين محمد وعلى آله الطيبين وصحبه الميامين وبعد ... ما زال النص يشكّل محور صراع وتفاعل بين المشتغلين به ، كائن قابل للقراءة وللتأويل لما يشكّله من بث غير

ملخص البحث

إنّ الخطاب القرآني إنّما هو خطاب استهدف المتلقي قارئاً كان أو مفسراً أو ناقلاً ، قد تميز بالترابط والانسجام . تحاول هذه الدراسة التوقف لبيان ماهية الخطاب والخطاب القرآني خاصة وطريقة انسجامه ، وكيف تلقاه المفسر الذي يُعدُّ متلقياً باث للخطاب القرآني ، من خلال توظيف ثقافته ليستنبط الإشعاع الذي ينتجه النص . فالمفسر يُعدُّ متلقياً مهم للنص القرآني ، فهو يقرأ النص بفهمه وبطريقته ومعطياته التفسيرية التي تنسجم مع خطاب النص مما يستدعي

واحد فينتهي مشتتاً باتجاهات قد تكون متنافرة في حالة ما متفقة في حالة أخرى. لقد اقتضى الفهم التفسيري للنص القرآني أن يجري التوقف عند حالة الخطاب و ما يمكن أن تنتجه تلك الحالة من وعي تفسيري مناسب للمتلقي ، يعتمد في أغلب أحيانه على طريقة تعاطي المفسر مع ذلك الخطاب .

فالخطاب هو مصدر للجذر الثلاثي خطب الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام ، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً^(١). أي الكلام بين اثنين^(٢)، فالخطاب اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب ، والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة^(٣).

وقد استمدت المعاجم العربية وكتب اللغة والفكر مفهوم الخطاب مما ورد في القرآن الكريم من نصوص قرآنية ، كقوله تعالى (: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابِ)^(٤). وفصل الخطاب بين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه^(٥). أي أن فصل الخطاب هو الكلام البين الواضح .

أما الخطاب في الاصطلاح ، فقد ذهب الكفوي (ت: ١٠٩٤ هـ) الى القول فيه بأنه : ((اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه احرصز « باللفظ » عن الحركات والإشارات المفهومة بالمواضعة و « بالتواضع عليه » عن الألفاظ المهملة، و « بالمقصود به الإفهام » عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطاباً ، وبقوله: « لمن هو متهيئ لفهمه

متناه للأفكار وللطروحات التي تقتضي تفاعلاً وتداولاً.

والنص القرآني هو نوع من تلك النصوص التي أثارت جدلاً كبيراً لدى المتلقي من خلال عدّة مقومات منها ما يتعلق بالمفهوم أو بالأقناع أو بالتداول أو بالإحالة ، وهكذا. وسنحاول في دراستنا هذه أن نسلط الضوء على بعض معطيات ذلك النص الذي يقتضي قراءة وتأويلاً ، وحددنا (محور الخطاب القرآني) لما له من أثر واضح في بث الوعي التفسيري لدى المتلقي وجعله مركزاً من المركبات التي توضّح النص . فاقترضت الدراسة أن تكون في مطلبين هما : الأول : الخطاب بين المفهوم وقراءة المفسرين ، والمطلب الثاني : وسائل تماسك الخطاب القرآني .

المطلب الأول

الخطاب بين المفهوم وقراءة المفسرين

أولاً : قراءة في مفهوم الخطاب يدور النص في مديات وأبعاد متنوعة ومختلفة ، تؤول بالتالي الى فهم فردي مناسب يؤول هو الآخر الى فهم جماعي . ويجري هذا النمط من الفهم في حوارية مناسبة تقتضي أن توظف بأدوات وآليات محدّدة . إن الرابطة غير المقدورة التي يبثها النص تفاعلاً هي الأخرى محوراً مهماً من محاور الفهم لدى المتلقي ، ومن ضمن حيثيات تلك الرابطة ، موضوعة البث الخطابية الذي يبدأ منفرداً من مصدر

، ومن أولويات الفهم، قراءة مفهوم النص بحد ذاته.

لقد رأى بعض المعاصرين أنَّ كلمة نص تطلق على كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة، على اعتبار أنَّ النص جسم مدرك بالحاسة البصرية، يرتبط بالكتابة بطريقة رسم الحروف ولو بقي تخطيطاً فهو إحياء بالكلام بتشابك النسيج الذي هو من اشتقاقات مصطلح النص^(١٢). فالنص يطلق

على الانتاج اللغوي الذي يتعدى الجملة باعتباره سلسلة من الحمل يضبطها مبدأ، مبدأ الوحدة ومبدأ الاتساق، فاستعمل هذا المصطلح في بعض المفهومية تارة مرادفاً للخطاب، باعتبار الخطاب نصاً وظروف انتاج وتارة باعتبار النص سلسلة جمالية مجردة معزولة عن ظروف انتاجها شأنه في التجرد والصورية شأن الجملة^(١٣).

ويرجع هذا الاختلاط في توظيف المصطلح وتحديد مفهومه، الى اختلاف المنطلقات الفكرية والفلسفية للدارسين^(١٤). إلا إن هناك من يفرق بين مفهوم النص ومفهوم الخطاب بقوله: ((النص ما يميزه عن الخطاب استعمال النص في الاتصال، وإن الخطاب مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة؛ أي أنه تابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق))^(١٥).

فالنص يكون مكتوباً، والخطاب مقروءاً، والنص محتمل غير فعال، على حين يكون الخطاب فعالاً، النص يكون قصيراً أو طويلاً، في حين الخطاب له طول محدد

« عن الكلام لمن لا يفهم كالتائم))^(٦) فالخطاب ((نص مكتوب ينقل من مرسل الى مرسل اليه يتضمن عادة انباء لا تخص سواهما))^(٧). وهو ما ذهب اليه أحمد المتوكل بقوله: ((هو كل ملفوظ مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات))^(٨). ومنهم من يرى أنَّ مفهوم الخطاب ((كل كلام يتجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً))^(٩).

فيما اعتمد بعض المعاصرين من المهتمين بذلك على حالة غايات النص ونهاياته ليفرز بين انفتاحه وانغلاقه، ليمثل محور الخطاب لديه إذ قيل: ((ملفوظ طويل أو متالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض))^(١٠). وهو ما آل الى تتبع متبعي النص ذاته - (وهو النص القرآني) - خطابياً بأليات وطرق أخرى تتجاوز المحور اللساني في الخطاب.

فالخطاب هو لغة التفاعل بين افراد المجتمع الذين يتواصلون باللغة ليشكل دلائل لغوية منتجة في صورة شخصية من قبل متكلم، لغرض تواصلية خاص ووظيفة ثقافية محددة^(١١).

ولمّا كان النص القرآني نصّاً قبل أن يكون أي شيء آخر سوى ذلك (ونعني به نصّاً منسجماً مترابطاً منتجاً* بطريقة معمقة)، فحريٌّ بنا أن نفحص فهم المتلقي بصورة عامة والمفسر بصورة خاصة لذلك النص

المتلقي ما زل الذكر، وهو الذي يؤدي الى صراع مفاهيم بين المفسرين ، يتوافقون عليه تارةً ويختلفون تارةً أخرى مما يؤدي الى تفاعل متكامل في تلك الرؤى المتفق عليها ، أو المختلف عليها بنمطية تتناسب وحجم الهدف القرآني الذي انتجه من خلال آياته المباركة .

ثانياً : مفاصل إنتاج الخطاب

لما كان التفسير القرآني منظومة متكاملة من الاداءات التي تنسجم مع حالة النص (القرآن الكريم) ، فإنّ الخطاب في فهم القرآن الكريم له عدّة مفاصل حري بالمفسر أن يتوقف عندها وأن يتفاعل معها بطريق يميزه عن مفسرٍ سواه ، وهذا -ربما- ما يبرر تمايز المفسرين بعضهم عن بعضهم الآخر وتفاعلهم فيما بينهم . فالمفسر نعني به من يستهدف النص القرآني تفسيراً خطابياً بطبيعته يدرك أنّ مفاصل الخطاب هي الآتي :

- المرسل أو المبدع :الذي يمتلك المقدرة على نقل الأفكار في أشكال وطرق متنوّعة ، فيقوم بتوجيه الخطاب في ترتيب الكلام بشكل منظم ومترابط .
- المتلقّي أو المستقبل : أي المرسل اليه ، الذي يوجه له الخطاب .
- الرّسالة أو الموضوع : أي مادّة الخطاب التي تُصاغ بصورة أدبيّة إبداعية .
- وسيلة الإيصال : أي قناة الوصل بين المؤلّف والمُتلقي عبر الكتاب، أو وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمكتوبة،

، النص يجب ان يحتوي على التماسك السطحي على حين الخطاب يجب ان يحتوي على تماسك جذري^(١٧) . فالخطاب عرّف على أنّه تحويل لغة عن لغة موجودة سلفاً وتخليصها من القيود التي يكبلها بها الاستعمال والممارسة ، وهو على هذا المعنى يكون كياناً عضويّاً يحدده ويميزه انسجامه النوعي وعلاقة التناسب القائمة بين اجزائه^(١٧) ، أي أنّه : ((نظام تعبير متقن ومضبوط))^(١٨) . فيما حسم بعض المشتغلين العلاقة بين الخطاب والنص لتشتمل على المعادلة الآتية^(١٩) :

الخطاب = النص + شروط الانتاج
النص = الخطاب - شروط الانتاج

فالخطاب منطوق أو فعل كلامي يستلزم انتاجه تهيئة جملة من الظروف الداخلية والخارجية ، كما يفترض وجود مرسل ومتلقي للرسالة هدف الأول التأثير على الثاني بطريقة ما ، وبالمقابل يتعلق النص بما هو مكتوب ، فالنص لا يولد إلا بانسجام خطابي أو بألية فيها نمط خطابي^(٢٠) .

وعلى وفق ما تقدّم نقول إنّ الخطاب القرآني إنما هو خطاب استهدف التلقي سواء كان قارئاً للنص أو مفسراً له أو ناقلاً له بألية نصية فيها كمّ من الترابط الإنسجامي الذي يبعث على توظيف ثقافة متكاملة لدى المفسر حتى يستنبط ذلك الاشعاع المنير الذي ينتجه ذلك النص ، ليتوقف مع رؤيته العامة (أي النص القرآني) باتجاه إنتاج وعيٍ متكامل لدى

ذمًا أو خوفًا أو جهلاً به ، ويطلق عليه عند البلاغيين بأسلوب الالتفات الذي يراد به التحول من وجه الى آخر والانصراف الى وجه آخر من وجوه الخطاب .

فيما نجد بعضهم الآخر فهم الخطاب على النحو الآتي : (٢٤)

الموضوع : تصنف الخطابات من حيث الموضوع الى خطاب ديني ، وخطاب علمي، وخطاب أيديولوجي ، أو سياسي .. الخ

البنية : وتصنف الخطابات في هذا النمط من حيث بنيتها أو ما يسمى (الخطاب الفني) الابداعي الادبي ، كالقصة والرواية والقصيدة وغيرها .

الالية : وتصنف فيها الخطابات وفقاً للآلية المشغلة للتمييز بين الخطاب السردى والخطاب الوصفي والخطاب الحجاجي .

فنظر الأول الى الخطاب من حيث العلاقة بين المتكلم والمرسل إن كانت مباشرة أو غير مباشرة ، والثاني الى تصنيف الخطاب من حيث البنية الكلية التي يتسم بها الخطاب فراعى في تصنيفه الموضوع الذي يتسم به الخطاب ، ونوعية الخطاب ، ووظيفته .

ويرى الباحث أنّ الأفضلية في التصنيف الأخير كونه يعتمد في التصنيف على بنية الخطاب الكلية ، فيدخل في ذلك موضوع الخطاب أي الرسالة ، نوعية الخطاب ، ووظيفته في المتلقي . فالخطاب يكون ضمن موضوع محدد هدفه تواصلية ، يتميز ببنية تميزه عن غيره من الخطابات الأخرى

أو من خلال الإنترنت والأجهزة الذكّية (٢١).
العناصر السياقية : وهي الاطار العام الذي يسهم في ترجيح واختيار الآلية المناسبة لعملية الفهم والإفهام ، أو الإقناع والاقتناع بين المرسل والمرسل اليه . ويتحقق ذلك بالمعرفة المشتركة بين المتخاطبين ، الظروف الاجتماعية ، فضلاً عن عنصري الزمان والمكان الذين يتلفظ فيهما المرسل بخطابه . (٢٢)

ثالثاً : نمطية الخطاب وعلاقته التفاعلية
يعتمد النمط الخطابي على طريقة التفاعل التفسيري مع الخطاب ذاته ، فالمفسر يقرأ الخطاب القرآني بعقليته التفسيرية التي أنتجت بقراءات ومفاهيم سابقة لقراءة ذلك النص الخطابي ، الأمر الذي يستدعي متابعة طريقة تعاطي المفسر مع الخطاب ، ليصنّف الخطاب على وفق ذلك بعدة طرق ؛ فمنها ما يرتبط بأدائه وتفاعله مع المتلقي ، ومنها ما يرتبط بمنظومته الخطابية الانسجامية المتكاملة . فنجد أن بعضهم فهم الخطاب بطريقتين هما : (٢٣)

الخطاب المباشر أي من المتكلم الى المتلقي مشافهة ، أو عبر وسيط أو قناة الاتصال .

الخطاب غير المباشر الكنائي الذي وري فيه المتكلم عن نفسه ، أو التفت عنها بضمير غيره ، أو خاطب فيه المتلقي بغير خطابه الصريح ، ملتفتاً عن الاصل في الخطاب الى غيره ، تعريضاً بالمعنى الذي يقصده به تأديباً أو تواضعاً أو مدحاً أو

منهما أقرب الى الخطاب المنطوق ويحتفظ بالتعبيرات الصوتية والاشارات المقامية ، والمقروء أقرب الى الخطاب المكتوب ، غير أن القارئ وظّف بعض التعبيرات الصوتية في الاداء والمشاهد أنجح من المسموع في التأثير والاقناع ؛ لما فيه من الأثر الحي المرئي .

وعليه فالخطاب هو حدث كلامي ملفوظ أو مكتوب ينتج عنه أثر يحدثه المرسل في المرسل اليه عبر قناة التواصل بينهما، وتكمن شدة الأثر والتأثير بين الاطراف على ما يوظفه منشئ الخطاب من اساليب في نصه الملفوظ أو المكتوب ، وهذا ما نلاحظه عند تفاعل المفسرين مع حالة الخطاب كونه نصاً مهماً نافعاً مؤثراً في أوساط عامّة المتلقين لذلك النص ، وهو فاصلة مهمة في قراءات المفسرين وتفاعلهم .

خامساً : القراءة التفسيرية للخطاب القرآني مما لاشك فيه أن الخطاب القرآني صادر من الله الخالق ، فهو منزّه عن المشابهة ، لا يشبه أي خطاب بشري ، معجزاً لا يجاريه أرباب اللغة والبيان قديماً وحديثاً من فحول الشعراء أو الخطباء العرب (٢٧) . أي : ((الدلالات التي دل عليها القرآن الكريم ، من حيث المفهوم والفحوى والظاهر والاشارة ، فهو أعم من النص وأوسع وإن كان المراد بالخطاب القرآني اللفظ نفسه ، فهو النص القرآني)) (٢٨) . وإن كانت الخطابات العربية قد تعددت

، وفق آليه ابداعية من خلال اللغة وظيفته التأثير والاقناع في المتلقي ، وقد ينسجم رأينا هذا مع ما يردّه القرآن الكريم دوماً ، بأن النمط المنسجم هو الذي ميز القرآن الكريم عن سواه من خطابات أخرى في كثير من الآيات التي تدلل على ذلك (٢٥) .

رابعاً : أدائية الخطاب

بما أنّ التواصل هو الضابطة الأكثر توظيفاً في الخطاب بصورة عامّة والخطاب القرآني بصورة خاصّة ، لذا نجد أنّ الخطاب تتنوع أنماطه بحسب تلك الضابطة انسجاماً ، مما يستدعي تقسيمه عند بعض الدارسين الى الأقسام الأتية (٢٦) :

١. الخطاب المنطوق والشفهي : وهو الأصل في الخطاب ، الذي ينجزه قائله شفاهة الى متلقي وتدخل فيه عناصر تعبيرية صوتية وغير لغوية ، ويشارك فيه السياق الخارجي الذي يعرف بمقام الخطاب أو المقال ، ويتميز هذا النوع بالسهولة والاختصار وقصر الجمل .

٢. الخطاب المكتوب أو المدون : ويكون في نص ثابت فيتحول من أفكار وأصوات الى شكل ثابت ، يتضمن هذا النوع تفاصيل المعنى والاستطراد ، يضمن الكاتب فيه عناصر مقام الحال التي شاركت فيه ويدون دلالات الحركات والاصوات لعدم دلالة الحروف عليها .

٣. الخطاب المسجل : صوتياً أو تلفزيونياً ، ارتجالاً ومقروءاً ، وهو يجمع بين النوعين السابقين فالمرتل الشفهي

على حدّ يتقنه في أقلّ تقدير - وهذا بحد ذاته يستدعي قراءة أخرى لمفسر آخر وهكذا ، إذ أنّ النص القرآني بحسب مجموع المقدمات التي يحظى بها ذلك المستهدف الأول للنص القرآني (وهو المفسر) الذي سيكون بحد ذاته بائناً للنص الخطابي بطريقته التفاعلية التي لا تكون بالضرورة طريقة أساسية في ذلك الخطاب القرآني المستهدف .

المطلب الثاني : وسائل تماسك الخطاب القرآني

مما لا شك فيه فإن الخطاب القرآني خطاب الهي معجز حير العقول ، يمتلك من الأدوات ما يجعله مؤهلاً لأن يكون من أهم الوسائل التعبيرية التي تؤثر في متلقيها ، فيعد من الأساليب التواصلية القادرة على استيعاب الأنساق الحضارية .

وللقارئ المتدبر أن يلمس بيسر جوانب إعجازه اللغوي في موقع سياق الكلمة ، وهيئتها وبنائها ، وحرركاتها ، وجرسها ، ووحيتها البياني^(٣٢) . ولا ينبغي أن ينظر أحد إلى القرآن الكريم على أنه تراث لغوي تتناقله الاجيال دون أن يتمثلوا لغته ويحتذوها ويقتدوا بها في انماط حديثهم وكتاباتهم ، بل هو نص حي يعيش بيننا تكفل الله بحفظه^(٣٣) . ولعل المدونة التفسيرية الكبرى للنص القرآني منذ بدايتها الأولى وإلى اليوم هي أبلغ دليل على مصداقية توجهه ، فمعنى خطابه يتوصل إليها حسب وجهة

أنواعها واختلفت مرجعيتها ، فلا شك أنّ الخطاب القرآني بوصفه نموذجاً لفظياً متعالياً يأتي على رأس هذه الخطابات بل من أشدها تميزاً على الاطلاق لما يحمله من خصائص نوعية تضمن له الفريدة والتميز^(٣٩) .

فالخطاب يمثل في ذاته سلطه إنجازية تمتلك قوة التأثير على من حوله في المجتمع من بشر مؤسسات ، وهذه السلطة التأثيرية يكتسبها الخطاب من المرسل كونه الفاعل الرئيسي للخطاب ، والذي يتجلى في اللغة باعتبارها الاداة الأهم في التفاعل مع المرسل إليه^(٣٠) ، وقد أنتج النص القرآني منذ نزوله تراكمًا يصعب حصره من التفاسير ، وفي كل تفسير يمكن أن يلاحظ إنزياح بين النص الاصلي ونص التفسير باعتباره لغة شارحة لمستويات لغة النص القرآني ، وإن اختلفت مستويات الفهم للنص القرآني يرجع إلى أنّ القرآن نزل متعدد المفهوم ، وكل متلق يتلقاه حسب قدراته الفهمية ، شرط أن لا يشد ذلك الفهم عن مقاصد الشريعة ، ومن هنا جاء وجود المتلقي في القرآن الكريم أمراً يُكمل عملية التواصل ، كونه عنصراً من عناصرها لا تقوم إلا به^(٣١) .

وفي إطار ذلك علينا أن نُميز خطايماً بين أنماط من المتلقين يتفاعلون فيما بينهم بحسب رتبهم النمطية ، فالمفسر مثلاً هو متلق مهم للنص القرآني ، وهو بحد ذاته يقرأ النص بفهمه وبطريقته ومعطياته التفسيرية التي تنسجم مع خطاب النص -

للكلامه الوظيفي لابد أن يكون مؤدياً
معنى مفيداً ، والكلام لا يكون مفيداً إن
كان مجتمعاً مع بعضه للبعض الآخر
دون ترابط^(٣٧) . فالترابط هو وجود علاقة
بين أجزاء النص أو جمل النص أو فقراته
، لفظية أو معنوية ، كلاهما يؤدي دوراً
تفسيريًا ، أي أن التماسك هو علاقة
معنوية بين عنصر النص وعنصر آخر
يكون ضرورياً لتفسير النص الذي يحمل
مجموعة من الحقائق المتواليه^(٣٨) . ويعتبر
التماسك عدسة تقييم القارئ للنص ، حيث
تختلف الأحكام المتعلقة به من قارئ الى
آخر^(٣٩) ، لذا أعتنى علماء التفسير وعلوم
القرآن ببيان الإعجاز القرآني في مسألة
ترابط الخطاب القرآني كقول الزركشي
(ت: ٧٩٤هـ) : ((ومن المعجز البين أسلوبه
ونظمه الباهر فإنه «كتاب أحكمت آياته
ثم فصلت من لدن حكيم خبير» قال:
والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول
كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو
مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما
قبلها؟ ففي ذلك علم جم وهكذا في السور
يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيق
له))^(٤٠) . ويقع التماسك تحت مصطلح
الإتساق الذي هو التماسك الشديد بين
الاجزاء المشكلة للنص -خطاب ما-
يهتم بالوسائل اللغوية الشكلية المكونة
للخطاب^(٤١) ، ويعتبر الانسجام أعم من
الإتساق ، فهو من المفاهيم التي وُظفت
في الكشف عن التلاحم القائم بين الجمل
والفقرات والنص بكامله^(٤٢) .

نظر كل مفسر من خارجه في أحيين كثيرة
على أساس مواضع أخرى من النص ، أو
من تفسير مأثور أو مناسبة نزول ، أو لاعتبار
شرعي أو عقائدي أو غيرها^(٣٤) ، ((فالناس
مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما
في الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد
الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط
الكلام مضطرب القول ، ومنهم من يتعذر
عليه الترتيب من بعض الوجوه ، ومنهم من
يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه
إلى أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه
القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة
عن النفس النطقية في حقه أكمل ، وكل من
كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك
الآثار أضعف ، ولما بين الله تعالى كمال
حال جوهر النفس النطقية التي لداود
بقوله : وآتينا الحكمة أردفه ببيان كمال
حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل
الخطاب وهذا الترتيب في غاية الجلالة))
^(٣٥) . وهو ما يوضح الفروق الفردية بين
منتج وأخر ، وهو ذاته يستدعي فصل
الخطاب القرآني عن سواه كونه خطاباً
يعيش مع النص في حالة النص زماناً
ومكاناً ، فيتفاعل مع متغيرات القراءات
ومتطلبات عصرنة النص أينما يحل ،
مستعيناً بضابطة التماسك الذي يمتاز به
ذلك النص عما سواه ، وما يدعو أن يكون
نصاً معجزاً قائماً على أصوله .
والترابط مفهوم قد يتم استعماله للإشارة
الى علاقة خاصة بين الجمل^(٣٦) . ولكي
يكون مفهوم النص أو الخطاب مؤدياً

والمناهج في تتبع تلك الأبنية وقراءتها وفهمها وبتفكيراً وتفاعلاً لدى المتلقي . ومن ذلك قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهٍ مُثَشَّبًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٤٦) . فيرى ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) أن الآية معطوفة على الآية السابقة بقوله : ((لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن «مثنائي» على أصح أقوال العلماء، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه ، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه . وحاصله ذكر الشيء ومقابله))^(٤٧) . فالجملة عطف على الجملة السابقة من حيث المقابلة بذكر ما سيؤول إليه الكافرين ومن ثم بين حال المؤمنين بتبشيرهم . وقد قال فيها النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ) : (على ما عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه؟ قلنا: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمرا بالنعو والإطلاق، ولك أن تقول معطوف على

وهناك من يرى أن الترابط والإتلاف والاتصال والانسجام كلها ذات دلالات للمعنى نفسه^(٤٣) ، فيقوم الانسجام على تأويل كل جملة مفردة بتأويل الجملة التي قبلها وبعدها، أي أنه أعم من الترابط الذي هو جزء من الانسجام^(٤٤) ، فهو يبحث في البنية العميقة للنص ، وبين الترابط والانسجام والتوافق يظهر أنها مصطلحات تؤدي المعنى نفسه ، فهي تبحث وتفتش في دلالات الخطاب العميقة وعلاقات الجمل مع بعضها مما يؤدي وظيفة افهامية للمتلقي تسهم بدورها في إقناعه بما يذهب اليه منتج ذلك الخطاب ، وهذا ما اعتاد على الإشارة إليه ضمناً، أو تطبيقاً أغلب مفسري القرآن الكريم ، بل هو ما نلاحظه واقعاً في أدائهم التفسيري .

وللخطاب القرآني وسائل عملت على تماسك وترابط نصوصه مما اظهرت انسجام مدلولاته وغاياته بتلك الخطابات^(٤٥) ومن تلك الوسائل :

أولاً : الرابطة أو الروابط

تلتصق الجمل والتراكيب خطابياً في القرآن الكريم بضابطة مهمة . وهي (الرابطة أو الروابط) التي يمثلها العطف بكافة جوانبه ، كونه أداة تواصلية فاعلة في ضبط سبك النصوص القرآنية وتماسكها ، مما يسهم في بناء انسجام موضوعي في الخطاب القرآني على الرغم من اختلاف أوقات نزوله وأسبابه . وهي بمجموعها محط نظر وتأمل لدى المفسرين ، إذ إنها نمط منهجي لا يغادره المفسر، إذ به تتضح معالم الأداء

فاتقوا))^(٤٨). أما الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) فيرى أنّ الجملة وإن كانت مصدرة بالإنشاء لا يقدح عطفها على ما قبلها، لأنّ المراد هو وصف ثواب المطيعين على وصف عقاب الكافرين، دون النظر الى ما أشتمل عليه الوصفان من خبر أو انشاء^(٤٩).

ولقد انشغل المفسرون في قراءاتهم لهذا النص بالأداء التركيبي المنسجم الذي يتمحور في العطف، فكانت أنظارهم مسلّطة عليه، فاحصين بما ينسجم وتشكيل منظومة الخطاب التكاملي، فتتوافق الرؤى التفسيرية لديهم وتختلف بحسب تفاعلهم مع ذلك النص بالقراءة المناسبة لمقتضيات فهمهم وتفاعلهم. ثانياً: الإشارة

إنّ الإشارة التفاعلية في الآيات القرآنية، تبنى على أساس أن يقتضي النص إشارة الى نص آخر بحديثات مناسبة وبآليات متوافقة، لذا حظيت باهتمام المفسرين في الكشف عن مراد الله تعالى. إلا أنّ تناولهم لهذه الوسيلة أو المعيار قد تميز باحتمال تعدد الضمير أو باحتمال تعدد ما يشير إليه الضمير^(٥٠). ومن تلك النصوص إشارة الضمير الى متعدد في قوله تعالى: (وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)^(٥١). فضمير الهاء في قوله: (إنّه

ربي) يراه الطبري (ت: ٣١٠هـ) أنّه راجع الى سيده وهو زوج المرأة، كونه مُكْرَمِه مَنزَلَةً، وهو قول السدي ومجاهد والجبائي

^(٥٢). وقال بذلك الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)^(٥٣). فتفاعلت رؤيتهم في ما احيل إليه الضمير باعتمادهما على ما أثر عن السدي من قول. وقال بذلك ابن عادل (ت: ٧٧٥هـ) إلا أنّه يرى أنّ ليس من المعقول أن يجازي ملكه بالخيانة^(٥٤)، فقد أشار الضمير هنا الى زوج المرأة الذي رباها باعتماده على ما ورد بالمأثور وأضاف عليها بما يقبله العقل بعدم مجازاة الاحسان بالإساءة. فيما قال آخر أنّ الضمير يعود على الله تعالى، لأنّ الله تعالى أنجاه فقال احسن مثواي اي نجاني واقامني في احسن مقام، ولا يصح القول أنّ الضمير راجع الى العزيز، فلا يطلق نبي كريم على مخلوق أنّه ربه؛ لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكاً له^(٥٥). ففسر النص على اساس عصمة النبي من الغلط، وإنّه لا يقول على أحدٍ غير الله ربه.

فبدا واضحاً هنا أنّ محوريتة التفاعل بين الرؤى التفسيرية لدى المفسرين تناغمت مع قيمة إحالتهم الى خارج النص من خلال النص ذاته، فطريقة تحريك النص باتجاه ما، إنّما حالة تفسيرية ينماز بها مفسرٌ عن سواه - كما مرّ - بتموضعه في قالب النص الذي حيل الى نصّ آخر يكون أقرب للحالة وللإدراك وللهم.

ثالثاً: التكرير

إنّ قراءة النص القرآني موضوعياً، أمرٌ ملفت للانتباه بنظر أغلب المفسرين مما يقتضي تفسير أبعاد ذلك النص تسلسلياً ضمن منظومة النص المتكامل. وهذا الأمر يدعو المفسرين الى الاهتمام بعنصر

التكرير كونه وسيلة تربط أجزاء الخطاب ودلالاته^(٥٦)، مما ينعكس أثره على فهم النص المفسر وبثه لدى المتلقي. ومما يبين ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)^(٥٧). فالخطاب واضح لبني اسرائيل فيه تكرير للآية (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)^(٥٨) من السورة ذاتها اراد إعادة الكلام توكيداً للحجة عليهم وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد (ص) وبقره بالوعيد في قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)^(٥٩). أي أنهم لم يطيعوه فيجب عليهم أن يطيعوه للخوف من عقابه المستقبلي^(٦٠). وإن التنبيه على ما أتاهم به هو تنبيه للعرب لأنّ الفضيلة بالنبي قد لحقتهم فجميع القصص تنبيه وإرشاد^(٦١). ويرى ابن عطية (ت: ٥٤٢ هـ) أنّ الخطاب الأول للمؤمنين والكافرين والخطاب المتكرر للكافرين فقط^(٦٢). فالخطاب المتكرر هو للتحذير والتهويل قد انسجم مع الخطاب الأول ليبين عاقبة بني اسرائيل وينبه بها المؤمنين. فالتفاعل حاصل بين المفسرين في بيانهم لمراد الله تعالى نتيجة لاعتمادهم على مقومات وآليات تربط الخطاب القرآني. إلا أنّ ابن عطية قد خالف برؤيته ما ذهب إليه الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) في مسألة تفضيل بني اسرائيل على العالمين،

فيرى أنّ تفضيلهم على عالم زمانهم الذي كانت فيه النبوة المتكررة والملك، لأنّ الله تعالى يقول لأمة محمد (ص) (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)^(٦٣).^(٦٤)

وهذا الأمر مما يتميز به بعض المفسرين على بعضهم الآخر في طريقة التعاطي والتفاعل الكلية والجزئية مع النص القرآني، من حيث كونه حالة في داخل النص الكلي (للسورة أو الآية المساقاة في النص)، وبين كونه جزئية ذات محور تُشكل تكاملاً مع النص القرآني الموضوعي برمته في مختلف مواقع.

رابعاً: العمق الدلالي التفسيري للآيات الترابطية

وقد تنبه المفسرون الى أنّ الخطابات القرآنية تنسجم مع بعضها بعلاقات متجاوزة أو متباعدة لا تقتصر على الارتباط الشكلي فحسب؛ بل أنّها تؤدي دلالات عميقة يدرك من خلالها مراد الله تعالى. ومن تلك العلاقات الاجمال والتفصيل. ففي قوله تعالى: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)^(٦٥). يرى الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) أنّ الطلاق هنا من قبيل المجمل الذي يفترق الى البيان تعلق بما قبله، ومعناه أنّ الطلاق الرجعي مرتان، ولا رجعة بعد الثلاث، أي طلقوا مرتين، يعني دفعتين، وإنّما وقع العدول عن لفظ الأمر إلى الخبر بأن التعبير عن الأمر بلفظ الخبر يفيد تأكيد معنى الأمر، فثبت أنّ هذه الآية دالة على الأمر بتفريق الطلاقات، وعلى التشديد في ذلك الأمر والمبالغة فيه،

فإن الله تعالى أعلن أن للنساء حقاً كحق الرجال، وجعل للرجال درجة زائدة: منها أن لهم حق الطلاق، ولهم حق الرجعة لقوله: *وَبِعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ* ((^{٦٦}) . فظاهر قوله أن الآية خطاب يوضح ما أجمل بقوله *وَبِعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ*؛ أي أن الخطاب كان مجمل غير مفصل لعدد التطبيقات التي يحق للرجل مراجعة زوجته فيها .

فلاحظ فيما تقدّم أن هذه الحالة حالة الأجمال والتفصيل في القرآن الكريم، إنما هي محطّ تداول وقراءات وتفاعل بين المفسرين في ذات الموضوع الواحد أو الآية الواحدة.

وقد يبدو أن هذا الأمر بديهي لأول وهلة ، إلا أنه إن أنعمنا النظر في فلسفة التفاعل في فهم المفاهيم القرآنية وتحديد ما في القرآن الكريم، إنما يأتي أثراً على المفسر لا مقدمات عليه، أي أن بعض المفسرين إنما تؤثر فيه قراءاته السابقة للموضوع وحيثيات اعتقاده الفكري والعقدي والفقهي السابق ينتج قراءة للنص القرآني بتلك الأبعاد والطروحات المشغول بها ذهنه من ذي قبل، فيؤدي ذلك الى ظهور مثل هذه التفاعلات التفسيرية في إطار قبول الآخر ورفضه لدى المفسر .

خامساً: مشروع الخطاب وفكرته هو البنية الدلالية التي تصب فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمر عبر متواليات قد تطول أو تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز أو إطناب أو شرح أو

فالآية متعلقة بما قبلها ، وذلك لأنه تعالى بين في الآية الأولى أن حق المراجعة ثابت للزوج في قوله : *(وَبِعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ)* ، ولم يذكر أن ذلك الحق ثابت دائماً أو إلى غاية معينة ، فكان ذلك كالمجمل المفتقر إلى المبين ، أو كالعام المفتقر إلى المخصص فبين في هذه الآية أن ذلك الطلاق الذي ثبت فيه للزوج حق الرجعة ، فيوجد طلقتان فقط وأما بعد الطلقتين فلا يثبت البتة حق الرجعة بالألف واللام في قوله: الطلاق للمعهود السابق ، فهذا تفسير حسن مطابق لنظم الآية فهو مجمل، لأنه ليس فيه بيان الشرط الذي عنده يثبت حق الرجعة، فيكون مفتقراً إلى البيان، فالآية متعلقة بما قبلها ، ليصبح المخصص حاصلًا مع العام المخصوص ، أو كان البيان حاصلًا مع المجمل ، وذلك أولى ، لأن تأخير البيان عن وقت الخطاب وإن كان جائزاً إلا أن الأرجح أن لا يتأخر^(٦٧) . فقد تنبه الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) الى أن الارتباط بين أي القرآن الكريم هي علاقة تفصيل بإجمال لأن الآية السابقة قد فصلت الآية اللاحقة لها وبينت المراد من ذلك الخطاب .

فيما يرى ابن عاشور(ت:١٣٩٣هـ) أن الآية فيها ((استئناف للآية السابقة عليها بقوله : استئناف لذكر غاية الطلاق الذي يملكه الزوج من امرأته، نشأ عن قوله تعالى: *وَبِعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ* في ذلك إن أرادوا إصلاحاً، وعن بعض ما يشير إليه قوله تعالى: وللرجال عليهن درجة ،

آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى
أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ (٧٥). (فبعد أن ذكر سبحانه في
الآي المتقدمة صنيع اليهود في مخالفتهم
أمره تعالى ومناقضة حالهم ، أكد ذلك
في هذه الآية بذكر نعم أفاضها عليهم ثم
إنهم قابلوها بالكفران)) (٧٦). فالملاحظ
من ذلك أن المفسر قد ميز بين المرحلتين
في موضوع الخطاب ، وما يشار إليه ضمناً
حين ينتقل الموضوع الى موضوع آخر
قولهم : إنما انقطعت هذه الجملة عن
التي قبلها لأنَّ الجمل السابقة لذكر الهدى
والمهتدين وهذه لذكر الضالين فالانقطاع
حاصل لأجل التضاد (٧٧). فما ذهب إليه
المفسرون من تغيير في موضوع الخطاب
يبين أنَّهم قد اتفقوا على هذه الآلية خلال
تفسيراتهم للنص القرآني واتفاقهم بتماسك
وإنسجام خطابه على الرغم من التحول
من موضوع الى آخر في السورة الواحدة
. بيد أنَّهم قد يختلفون في فقرة حلقة
الخطاب أو ركيزته أو دالته أو تحديده أو
الأثر الذي ينتجه .

سادساً : المناسبة والتناسب

اختلفت تعبيرات المفسرين في بيان
المناسبة بين الآيات ، فقد استعملوا صيغاً
لم يستعملوها في آيات تصل بينها وسائل
شكلية وعلاقات ، كما أنَّ طريقتهم في
توضيح الانصال بين آيات معينة فقد تطول
شروحاتهم فيها وتستفيض من اجل اقناع

تمطيط وغيرها ، ولم يشر المفسرون الى
هذه الآلية في تماسك النص ، وإنما كان
واضحاً ضمن تفسيراتهم للخطاب القرآني
(٦٩). إلا أنَّها كانت تتمحور حول خطاب
منظم . فعند تفسير قوله تعالى : (كَيْفَ
تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (٧٠).
يرى الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) في سورة البقرة
أنَّها موضوعات خطابية مرتبة بصورة
مقصودة ابتدأت بكلام في التوحيد والنبوة
والميعاد ومن ثم الخطاب كان حول النعم
لسائر البشر ، ثم اعقبها تعالى بخطاب
موجه بصورة خاصة لأسلاف اليهود (٧١).
. ولما تكلم في دلائل التوحيد ، والنبوة ،
والمعاد شرع في شرح النعم التي عمت
جميع المكلفين ، كان الغرض الاستخبار
التبكيك والتعنيف (٧٢). فالنص فيه التفات
الى خطاب المذكورين مبني على ايراد ما
عدد من قبائحهم السابقة لتزايد السخط
الموجب بالتوبيخ والتقريع والاستفهام
الانكاري لا بمعنى انكار الوقوع (٧٣).

ويمكن أن يكون موضوع الخطاب متغيراً
في السورة دون انفصال الموضوع المنتقل
اليه عن الموضوع العام . ويمكن أن
يشير المفسر الى ذلك الانتقال ضمناً أو
تصريحاً كقوله انتقال من الانحاء على
بني اسرائيل في أفعالهم مع الرسول موسى
u بما قابلوه به من العصيان والتعلل الى
الانحاء عليهم بسوء مقابلتهم للرسول
الذين أتوا بعد موسى مثل يشوع والياس
وغيرهم (٧٤). كما في قوله تعالى : (وَلَقَدْ

(٨٤)

فالملاحظ على ذلك استفادة الشرح لدى المفسرين لإقناع القارئ والاستعانة بوسيلة خارج النص كأسباب النزول ، خلافاً للعلاقات الشكلية التي يحويها النص من عطف وإشارة وغيرها من وسائل التماسك اللغوية ، أي أنّ المناسبة والتناسب بين بعض الآيات كان دلاليّاً يستعان به لبيان المراد من قوله تعالى ومناسبة ذلك . وهذه الوسيلة تكشف التفاعل بين رؤيتهم بإحالتهم لعناصر خارجية تبين المناسبة والتناسب بين الآيات ، على اعتبار أنّ تلك المناسبة لها أثرٌ مهم في تفسير النص القرآني وقراءته محورياً و موضوعياً وتكاملياً .

سابعاً : تناسقية الخطاب

هو أن يكون الخطاب القرآني مرتباً على حسب ما يقع في الخارج مما يحقق أهمية في انسجام الخطاب ، كما يعدّ من المعايير التي أشار إليها المفسرون في تفاسيرهم (٨٥) . ومنه تفسير الآيات ٦٦-٧٣ من سورة البقرة في تفسير الكشاف حيث يقول : إنّ القصة لم تقص على ترتيبها وكان الحق أن يقدم القتل والضرب على الأمر بقتلها ، فقدمت قصة الأمر بذبح البقرة عن ذكر القتل ، ولو حصل العكس لكانت قصة واحدة ولذهب العرض من ثنية التقرير الراجع الى البقرة (٨٦) . فرتب الخطاب على ما يناسب العالم الخارجي ليكون منسجماً مؤثراً . ومن المفسرين من يعلل التقديم والتأخير في القصة أنّ ذبح البقرة المذكورة هنا مقدم في التلاوة ومؤخر في المعنى على

القارئ بسلامة تخريج الصلة بين الآيات ، أو يستجدون بسبب النزول لتبرير موقع آية من أخرى (٧٨) . كتفسيرهم لقوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأِهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا) (٧٩) . حيث يرى النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ) أنّ وجه اتصال الكلام في هذه الآية بناء على الأسباب المروية في نزوله وعليه أكثر المفسرين ، فسألوا عن الحكمة من اختلاف حال الاهلة قيل لهم : اتركوا هذا السؤال وابعثوا عن ما هو أهم منه وانظروا في ما تحسبونه براً وليس من البر في شيء ، ويمكن أن يكون ذكر الاهلة بجعلها مواقيت للناس والحج ، وقع استطراد ونزلت الآية للحدثين معاً في وقت واحد (٨٠) . ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها أنّ سبب نزولها كان مالياً أو مقارناً لسبب نزول الآية التي قبلها وأنّ مضمون كلتا الجملتين كان مثار تردد وإشكال عليهم من شأنه أن يسأل عنه (٨١) . ففي قوله تعالى : (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً) (٨٢) . يرى الطباطبائي (ت: ١٤٠٢هـ) أنّ صدر الآية تعليل لقوله تعالى في الآية السابقة لها (وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) (٨٣) . أي كيف لا يملك ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وكيف يكون نسيّاً وهو تعالى رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الشَّيْءِ وهو مالكة المدير لأمره ، فملكه وعدم نسيانه مقتضى ربوبيته

إليه من السماء ثم ذكر السماء لأن نزول الماء وخروج الثمرات بسببه ، وكان لهذه الدلائل سبباً بتقديم الإنسان^(٩٠) . ومن ذلك قوله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٩١) .

فيرى الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) أن سبب الترتيب هو لتقديم ما هو أعرق في القدرة: وهو المشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ، ثم المشي على رجلين ، ثم المشي على أربع ، وسمى الزحف على البطن مشياً على سبيل الاستعارة^(٩٢) .

فقدم بهذا الترتيب ما هو أعجب وهو المشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم المشي على رجلين ثم المشي على أربع^(٩٣) .

فموضوع ترابية الخطاب وتنسيقته من الموضوعات التي سلط أغلب المفسرين نظره عليه ، لما له من أهمية في فهم النص القرآني فهماً دقيقاً مستوعباً شاملاً بجميع مفاصل ذلك النص ، فهم في ذلك تتفاعل لديهم الرؤى التفسيرية أصلاً وتفصيلاً ، فالأصل في المطلق * والتفصيل في أثناء ذات الآيات ** .

قوله تعالى : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)^(٨٧) . فيجوز أن يكون قوله: قتلتم مقدماً في النزول، ويكون الأمر بالذبح مؤخراً، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتل فأمرُوا أن يضربوه ببعضها هذا على فرض أن الواو تقتضي الترتيب وقد تقرر في علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب ولا معية^(٨٨) . فاعتمد المفسر هنا على ترتيب نزولها خلافاً للمفسر السابق الذي بنى تفسيره في ترتيب الخطاب وفقاً لما ينسجم مع الواقع الخارجي .

فيما يرى مفسر آخر أن ترتيب الخطاب يرتبط بترتيب العناصر في الخطاب كما في تفسير قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٨٩) . حيث يرى أن الدلائل التي ذكرها

الله تعالى في هذين النصين خمسة دلائل اثنين في الأنفس وثلاثة في الأفاق ، بدأ بخلق الإنسان ثم الآباء والأمهات وثالثاً كون الأرض فراشاً ، ورابعاً السماء بناء ، وخامساً الامور الحاصلة من مجموع السماء والأرض ، فرتب بهذا الترتيب لأنه أقرب الى نفس الإنسان . فبعد ذكر خلقه وآبائه ذكره بالأرض لأنها أقرب

الخاتمة

١. إنَّ الخطاب القرآني إنَّما هو خطاب استهدف المتلقي قارئاً كان أو مفسراً أو ناقلاً، قد تميز بالترابط والانسجام، يعمل كل مفسر على توظيف ثقافته ليستنبط الاشعاع الذي ينتجه ذلك النص، وبالتالي انتاج رؤية تفسيرية ليؤدي بدوره صراع مفاهيم بين المفسرين ليتوافقون على تفسيره تارة ويختلفون تارة أخرى .

٢. كما يُعدُّ النص القرآني نصَّ متميز . فهو نص قابلاً للقراءة ولل فهم والتأويل وللتعاطي مع الخطاب القرآني ، وبما أنَّ المفسر يُعدُّ متلق يقرأ النص بفهمه وبطريقته ومعطياته التفسيرية التي تنسجم مع خطاب النص ، مما يستدعي قراءة أخرى لمفسر آخر وهكذا . وبما أنَّ المفسر باثٌ للنص الخطابي فحري به أن يحظى بمنظومة تفسيرية متكاملة قائمة على مقدمات مناسبة، مما انتج عن ذلك تفاعلاً تفسيرياً اتكالياً على تلك المقدمات .

٣. ولأنَّ الخطاب يمثل في ذاته سلطة انجازية يمتلك قوة التأثير على من حوله في المجتمع ، اختلفت الفروق الفردية بين منتج وآخر وهو ذاته يستدعي فصل الخطاب القرآني عن سواه ، فهو يعيش مع النص في حالة النص زماناً ومكاناً ، ليتفاعل مع متغيرات القراءة ومتطلبات عصرنة النص أينما يحل مستعيناً بضابطة التماسك .

هوامش البحث

- ١- ينظر: لسان العرب: ١/ ٣٦١.
- ٢- ينظر: مقاييس اللغة : ٢/ ١٩٨.
- ٣- ينظر: لسان العرب : ١/ ٣٦١.
- ٤- سورة ص : ٢٠ .
- ٥- الكشاف : ٤/ ٨٠.
- ٦- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : ١/ ٤١٩.
- ٧- معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب : ١٥٩.
- ٨- الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط : ٢٤.
- ٩- دليل الناقد الادبي : ١٥٥ .
- ١٠- تحليل الخطاب الروائي : ١٧ .
- ١١- ينظر: لغة الخطاب السياسي : ٣٩.
- ١٢- ينظر: لسانيات النص النظرية والتطبيق مقامات الهمذاني انموذجاً : ٣٤.
- ١٣- ينظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط : ٢٢ .
- ١٤- ينظر: لسانيات النص النظرية والتطبيق مقامات الهمذاني انموذجاً : ٤٤ .
- ١٥- النص والخطاب والاجراء : ٦ .
- ١٦- ينظر: لسانيات النص النظرية والتطبيق مقامات الهمذاني انموذجاً : ٤٤ .
- ١٧- ينظر: الاسلوبية والاسلوب : ١١٢ .
- ١٨- حفريات المعرفة : ٣٤ .
- ١٩- لسانيات النص النظرية والتطبيق مقامات الهمذاني انموذجاً : ٤٤ .
- ٢٠- ينظر: لسانيات النص النظرية

- والتطبيق مقامات الهمذاني انموذجاً: ٤٤
بتصرف ؛ ويراجع في ذلك مثلاً تفسير
مفاتيح الغيب : ٢/ ٣٣٥- ٣٣٦ وينظر :
الكشاف : ٣/ ٢٤٧ .
- ٢١- ينظر: الخطيئة والتكفير: ١٠-١١ و
ينظر: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة
بين النص والسياق : ٢٣ وينظر: تحليل
الخطاب في ضوء نظرية احداث اللغة :
٢٩-٣٠ وينظر: جمالية الخطاب في النص
القرآني : ٨٤ وينظر : تحليل الخطاب
الادبي في نهج البلاغة : امير فرهنك ، موقع
الكتروني .
- ٢٢- ينظر: جمالية الخطاب في النص
القرآني : ٨٤ وينظر : تحليل الخطاب
٢٣- تحليل الخطاب في ضوء نظرية
احداث اللغة : ١٨-١٩ .
- ٢٤- ينظر: الخطاب وخصائص اللغة
العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط :
٢٤ .
- ٢٥- يمكن مراجعة ذلك في كثير من
الآيات القرآنية التي تدل على انسجام
الخطاب وتماسكه بطريقة اللغة المنسجمة
المعجزة له . مثلاً قوله تعالى : « بلسان
عربي مبين » وسواها من الآيات المباركة .
- ٢٦- ينظر: تحليل الخطاب القرآني في
ضوء نظرية احداث اللغة : ٢٥-٢٦ .
- ٢٧- ينظر: مفهوم الخطاب القرآني
للمؤمنين في ضوء سورة النور : ٥
٢٨- تحليل الخطاب القرآني في ضوء
نظرية احداث اللغة : ٢٨ .
- ٢٩- ينظر : جمالية الخطاب في النص
القرآني : ٩٢ .
- ٣٠- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة
لغوية تداولية : ٢٢٠ .
- ٣١- ينظر: جمالية الخطاب في النص
القرآني : ٩٦-٩٨ .
- ٣٢- ينظر: اسرار الترادف في القرآن : ٦ .
- ٣٣- ينظر: المعايير النصية في القرآن
الكريم : ١٣ .
- ٣٤- ينظر : نظرية اللغة في النقد العربي :
٤١١ .
- ٣٥- مفاتيح الغيب : ٢٦/ ٣٧٧ .
- ٣٦- ينظر: لسانيات النص -مدخل الى
انسجام الخطاب- : ٣١ وينظر: نحو
النص : ٩٨-٩٩ .
- ٣٧- ينظر: بناء الجملة العربية : ٨٧ .
- ٣٨- ينظر: نحو النص : ٩٨-٩٩ .
- ٣٩- ينظر: علم لغة النص : ١٠٠ .
- ٤٠- البرهان في علوم القرآن : ١/ ٣٧ .
- ٤١- ينظر: لسانيات النص -مدخل الى
انسجام الخطاب- : ٥ .
- ٤٢- ينظر : المصدر نفسه : ٦ .
- ٤٣- ينظر: وجوه من الاعجاز القرآني :
٢٨ .
- ٤٤- ينظر: الانسجام في القرآن الكريم :
٢٧ .
- ٤٥- ينظر: لسانيات النص -مدخل الى
انسجام الخطاب- : ١٦٥ وما بعدها و
ينظر: المعايير النصية في القرآن الكريم : ١٩
وما بعدها . ؛ على أننا نشير أنه قد استعمل
مصطلحات أخرى غير التي ذكرناها .

- ٤٦- سورة البقرة: ٢٥.
- ٤٧- تفسير القرآن العظيم: ٤٠٣/١.
- ٤٨- غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ١٩٨ /١.
- ٤٩- ينظر: فتح القدير: ٦٥/١.
- ٥٠- ينظر: لسانيات النص -مدخل الى انسجام الخطاب-: ١٧٣.
- ٥١- سورة يوسف: ٢٣.
- ٥٢- ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٣٢/١٦.
- ٥٣- ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ١١٦ /٦.
- ٥٤- اللباب في علوم الكتاب: ٥٨/١١.
- ٥٥- ينظر: البحر المحيط في التفسير: ٢٥٧ /٦.
- ٥٦- ينظر: لسانيات النص -مدخل الى انسجام الخطاب-: ١٧٩.
- ٥٧- سورة البقرة: ٤٧.
- ٥٨- سورة البقرة: ٤٠.
- ٥٩- سورة البقرة: ٤٨.
- ٦٠- ينظر: مفاتيح الغيب: ٤٩٢/٣.
- ٦١- ينظر: المصدر نفسه: ٤٩٣/٣.
- ٦٢- ينظر: المحرر الوجيز: ١٣٨/١.
- ٦٣- سورة ال عمران: ١١٠.
- ٦٤- ينظر: المحرر الوجيز: ١٣٩/١ و ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٧٨ /١.
- ٦٥- سورة البقرة: ٢٢٩.
- ٦٦- سورة البقرة: ٢٢٨.
- ٦٧- ينظر: مفاتيح الغيب: ٤٤٢-٤٤٣.
- ٦٨- التحرير والتنوير: ٤٠٣/٢.
- ٦٩- ينظر: لسانيات النص -مدخل الى انسجام الخطاب-: ١٨٠.
- ٧٠- سورة البقرة: ٢٨.
- ٧١- ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٧٥/٢ و ينظر: لسانيات النص -مدخل الى انسجام الخطاب-: ١٨١.
- ٧٢- ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ٤٨٠ /١.
- ٧٣- ينظر: ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب السليم: ٧٧/١.
- ٧٤- ينظر: التحرير والتنوير: ٥٩٢/١ و ينظر: لسانيات النص -مدخل الى انسجام الخطاب-: ١٨٢.
- ٧٥- سورة البقرة: ٨٧.
- ٧٦- غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ٣٢٩ /١.
- ٧٧- ينظر: التحرير والتنوير ٢٤٧/١.
- ٧٨- ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣٦/١ و ينظر: لسانيات النص -مدخل الى انسجام الخطاب-: ١٩٠.
- ٧٩- سورة البقرة: ١٨٩.
- ٨٠- ينظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ٥٢٦-٥٢٧ /١.
- ٨١- ينظر: التحرير والتنوير: ١٩٧/٢.
- ٨٢- سورة مريم: ٦٥.
- ٨٣- سورة مريم: ٦٤.
- ٨٤- ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤ /٨٣.
- ٨٥- ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣٥ /١ و ينظر: لسانيات النص -مدخل الى

- انسجام الخطاب-: ١٨٣ .
- ٨٦- ينظر: الكشاف: ١/ ١٥٤ .
- ٨٧- سورة البقرة: ٧٢ .
- ٨٨- ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن :
- ١/ ١٣٠ و ينظر: زاد المسير في علم التفسير
- ١/ ٧٨ و ينظر: فتح القدير: ١/ ١١٤ .
- ٨٩- سورة البقرة ٢١-٢٢ .
- ٩٠- ينظر: مفاتيح الغيب : ٢/ ٣٣٥-
- ٣٣٦ .
- ٩١- سورة النور: ٤٥ .
- ٩٢- ينظر: الكشاف : ٣/ ٢٤٧ ؛ و ينظر
- : اسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم: ٩٧ .
- ٩٣- ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٤/ ٤٠٧ .
- ٩٤ * نقصد بالمطلق هنا أنهم يتفاعلون في أصل الموضوع كموضوع الترتيب الخطابي والاكمال النسقي للخطاب .
- ٩٥ ** ونعني بالتفصيل هنا أنهم قد يختلفون في قراءة مفردة ذات بعد خطابي أو أداء خطابي عن أخرى بآلية متشابهة أو مختلفة .

The role of the Qur'anic text in spreading interpretive awareness
(Axis of the Qur'anic discourse)

Abstract

The Quranic discourse, which targets recipients whether they are readers, interpreters or turn there, is a discourse that is distinguished by coherence and harmony.

This study aims at elucidating disagreement and the Quranic discourse in particular. It also discusses the elements that help it become coherent and examines the way through which the interpreter, who is considered a conveying recipient of this discourse, receives and interacts with the Quranic discourse. This is done with the help of the interpreter's culture by means of which the lessons, garnered by the term are deduced, the interpreter is an important recipient of the Quranic text as he is of which the les-

son, generated by the text, are deduced.

The interpreter is an important recipient of the Quranic text as he reads the text in his own ways, methods and explanatory tools which are congruent with the discourses of the text. This entails another reading by another interpreter soon and so forth. The individual differences among recipients and the cultural differences play an important role in producing an interpretive vision that might lead to a clash of concepts that results in an agreement among the interpreters on the interpretation of the discourse some times or a difference in their interpretation.